مجلة أيقونات

ISSN 2170-0400
EISSN 2600-6103

عبد القادرفهيم شيباني العدد 06، المجلد السادس،2018.

أسرار التأليف

هكذا سمعنا المعلم في كتاب :"محاضرات في اللسانيات العامة"

عبد القادرفهيم شيباني

Summary:

This article is a search of the latest secrets disclosed on the preparation of a book general language course, attributed to the world of Linguistics Ferdinand de Saussure, where research stops at the most important stations of the book and its concepts.

ملخص:

هذا المقال عبارة عن بحث في آخر الأسرار المسربة عن خلفيات إعداد كتاب محاضرات في اللسانيات العامة، المنسوب لعالم اللسانيات الشهير فيردينان دو سوسير، حيث يتوقف البحث عند أهم المحطات التي تعتبر فارقة في محتوى الكتاب ومفاهيمه، بعد أن شهد ماشهده من شهرة علمية.

الكلمات المفتاحية: فيردينان دوسوسير، آلبرت سيشهاي، شارل بالي، كتاب محاضرات في اللسانيات العامة.

البريد الإلكتروني للكاتب: otaha80@gmail.com
كليات التقنية العليا، قسم اللغة العربية والدراسات الإماراتية-الإمارات المتحدة

مجلة أيقونات مجلة معتمدة ضمن قاعدة بيانات المجلات الوطنية لوزارة التعليم العالي في الجزائر.
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/135
جميع الحقوق محفوظة

ISSN 2170-0400
EISSN 2600-6103
عبد القادرفهيم شيباني العدد 06، المجلد السادس،2018.

هل ثمة فكر قائم بذاته ينسب ل:دوسوسير؟ أم أنه مجرد سراب؟ نقول ذلك، فقط لأن السؤال ليس بمستغرب، لأنه لايوجد في الواقع من مجموع الأوجه التي بدأت تتكشف عن شخصيته العلمية سوى شخص واحد، إنه الشخص الذي عرفناه سنة1916 من خلال كتاب"محاضرات في اللسانيات العامة"، نص لم يظهر إلا بعد موت مؤلفه، ولم يكن في الحقيقة قد خط سطرا واحد مما جاء فيه. الغريب أن هذا النص لم يمر مرور الكرام، كونه أحدث ثورة فعلية في مجال العلوم الإنسانية. لقد أثرى هذا النص سير أعلام الفكر في القرن العشرين من قبيل: مارلوبونتي وليفي شترواس وهنري لفابر، رولان بارت، وميشال فوكو وآخرون. والملفت في الوقت نفسه، أن أفكار هذا النص قد عالجت بأسلوب غير معتاد بعض القضايا التي شغلت فلاسفة اللغة بدءا ب:"أفلطون" ووصولا إلى "هومبلدت".

نحن إذا أمام وضع مريب، اكتشفنا من خلاله أن فيرديناند دوسوسير هو واحد من أهم أعلام القرن العشرين، ومؤسسي القواعد المثلى للسانيات المعاصرة، بالشكل الذي حول اللسانيات إلى نقطة استقطاب لمجموع العلوم الإنسانية، وهو الاستقطاب الذي ظل ولايزال فاعلا في سيرورة التصورات والفروع المستقبلية. حتى أضحت اشكالات العلامة اللسانية،أو الاعتباطية، أو القيمة، أوالتزامنية والتعاقبية، كما لو أنها بديهيات يجب الأخذ بها كقاعدة لأي تصور نظري في اللسانيات. والحقيقة انه كلما أعملنا موزاين التبصر وفتشنا في التفاصيل وأثرنا السؤال مجددا، لوجدنا ان للشك مكانا محفوظا في ثنايا هذا النص حول تلك البديهيات، وهي ذات القضايا التي تمس بأهم الإشكالات الأساسية في اللسانيات.

لماذ قد يتسرب إلينا هذا الشك؟ ولماذا اليوم على وجه التحديد؟ يشير الواقع إلى أن فيرديناند دو سوسير هو مؤلف كتاب لم يكتبه، وأن كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة –كما يعلم الجميع- هو من تأليف تلميذيه "شارل بالي" و"آلبرت سيشهاي"، الذين شكلا نص الكتاب انطلاقا من تلك الملاحظات التي سجلها الطلبة. ولكن الأغرب، أن كلاهما لم يحضر تلك المحاضرات، تحديدا محاضرات اللسانيات العامة. بينما كان آلبرت رايدلينجر بوصفه المحرر الثالث وصاحب التصور الذي خط وفقه الكتاب، الوحيد الذي حضر محاضرات فصل خريف 1907، ومحاضرات سنتي 1908-1909، ولكنه لم يحضر المجموعة الثالثة من المحاضرات المهمة بين سنتي 1910-1911، والتي سيكون الجزء الأكبر منها نصوص كتاب المحاضرات. كل ذلك لأن فكر السوسيري حول اللسانيات العامة لم يتبلور سوى في صيف سنة1911، وقد كانت المحاضرة الأخيرة بتاريخ 04 جويلية1911، تتويجا لفكر دام قرابة الأربعين سنة من البحث، إنه ذات الفكر الذي يبقى لدى البعض مثيرا للاهتمام بالشك بالنظر إلى صعوبة تحقيق انسجامه.

لطالما اعتقدنا أن ماهو مهم في فكر دوسوسير يتلخص فيما جاء في نص المحاضرات في اللسانيات العامة، ولكن هذا النص لم يظهر إلا بعد مضي ثلاث سنوات بعد موته. إنه في واقع الأمر حصلية عمل شاق من إعادة البناء والتحرير، بالنظر إلى تلك التحديات التي تعترض الرحلة المضنية في البحث عن فكر هذا العالم اللساني قبل البحث عن النصوص والملاحظات التي سجلها الطلبة. المريب أننا حالما ندقق النظر في تلك النصوص فسنساق لطر أسئلة عديدة، وسنلاحظ بجلاء عددا لاحصر له فجوات القطيعة، وحالات كثيرة من القفز على العقل، وهو انطباع قد يتأتى بالنظر إلى تلك التعديلات التي هي في الأصل غير مؤكدة عن المحاضرات حتى لحظة التحرير النهائي لمحررين لم يكونوا في الأصل من المستمعين المباشرين.

جميع الحقوق محفوظة

ISSN 2170-0400
EISSN 2600-6103

مما لاشك فيه أن المواد التي شكلت مصدرا في كتابة كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة" هي مصادر غير متجانسة. وقد كانت تلك الملاحظات التي عثر عليها قديما في بعض أوراق دوسوسير مصدرا من جهة، على الرغم كونها بعيدة كل البعد عما جاء في المحاضرات. ومن جهة أخر، فقد شكلت ملاحظات الطلبة المسجلة في أثناء المحاضرات والتي بدا عليها التوافق مصدرا آخر. هذا الأخير في واقع الأمر، لايمكنه في واقع الأمر إلا أن يخلق وضعا لانزلاق محتوم عما ألقي في المحاضرات، وستكون من مضاعفاته حصول حالات تأويل واختزال تستوجبه عملية تسجيل كل ملاحظة على جنب، كل ذلك مع وجود اختلاف في التحرير من مستمع لآخر. وسنكون في المحصلة أمام عدد من النصوص الناشزة، والمقاطع غير المكتملة، والمصادر المتناقضة كل ذلك مربك للمفاهيم والتصورات التي صيغت في الكتاب رغم وضوحها في الظاهر.

لقد توجب على المحررين إذا، فحص تلك الملاحظات السوسيرية المخطوطة المتوافرة ومن ثم العمل على اخضاعها لإكراهات الاختيار والتدقيق وحتى إضافة بعض اللمسات على ملاحظات الطلاب. وهو مايعني أن تأويلات المحررين للمحاضرات هي التي صنعت في النهاية المؤلف، وهي الي ستضاعف بدورها من احتمال التشويه في مواضع عدة. وفي هذا المقام، ينبغي ان لا نغفل أن رغبة المحررين في تحقيق أقصى صور الانسجام في هذا المؤلف، قد قادهم إلى تشكيله ضمن نظام ملفت وخاص. لقد عمل نص المحاضرات من خلال محرريه إذا، على رتق المقاطع ضمن نظام يتوخى الاستجابة لمقاصد المحاضر، حتى وإن كانت هذه المقاصد غير جلية؛ فإنه يتم العمل على تشكيلها وفق تخمينات المحررين كما جاء في مقدمة الكتاب.

إن أولى استشكالات تأويل مقاصد دوسوسير، تبدأ من صياغة الفهرسة وهو مايعري بوضوح تلك التخمينات. فبعد مقدمة عامة أبعد ما تكون التقديم الحقيقي، ينتقل الكتاب إلى "المبادئ العامة" المتمركزة حول العلامة. لنيقلنا الفهرس فيما بعد إلى فصول طويلة حول اللسانيات التزامنية واللسانيات التعاقبية، ثم نحو اللسانيات الجغرافية، لينتهي الكتاب بمساءلة حول اللسانيات التطورية. لقد بدا في ضوء هذه الفهرسة بوضوح تردد المحررين بين اتباع الترتيب الكرونولوجي للمحاضرات والترتيب المنطقي للموضوعات، لذا فإنه يمكن للقارئ أن نعثر في هذا النص تحت موضوع واحد مقاطع من من محاضرات بتواريخ متفاوتة. وعليه فإن الاختيار في هذا الوضع من التردد قد لا يخلوا من المجازفة، كون أن أكبر التحديات في إعادة بناء الفكر السوسيري متوقفة على تحديد طريقة في ترتيب العناصر التي يمكن من خلالها افتتاح قضايا المحاضرات.

لقد توجب على المحررين في المحصلة لإنجاز هذا النص التورط في حالات تملي تقليم المقاطع، أو تسييقها وتوليفها أو حتى التعليق عليها. والظاهر للعيان في كثير من المواضع، تلك الاستبدالات الاصطلاحية لماجاء في ملاحظات الطلاب بشكل متوال ومخل!. واليت يمكننا تلخيصها في الجدول الآتي:

مصطلحات الطلاب	إبدالات المحررين
Substance phonique	Substance acoustique
Chaine phonique	Sonorité linguistique
Tranche phonique	Suite acoustique
Eléments phoniques/phonème	Unités irréductibles

جميع الحقوق محفوظة

ISSN 2170-0400
EISSN 2600-6103

Figure acoustique	Signe maréríel

لقد أثبتت طبعة رودولف إنجلر[1] (1968)، والتي دأبت على تعميق العمل الذي قدمه روبرت غوديل[2] (1957) بوصفه يعد من أوائل المطلعين على على مخطوطات دوسوسير، الملاحظ أن هذا الأخير قام بتوضيح حالات كثيرة من الاختلاف بين تلك المخطوطات وكتاب المحاضرات، والتي يمكننا إجمالها في الملاحظات الآتية:

1- تغيير المحررين للخاتمة
2- جميع الأمثلة تم إضافتها من قبل المحررين
3- جميع التعليقات هي من إضافات المحررين
4- إضافة بعض المفاهيم المفتاحية بداعي التوضيح أوالشرح، على غرار مفهوم "القوانين الاجتماعية" الذي لاأثر له في المخطوطات.
5- إضافة قواعد مفهومية اعتبرت أساسية، على غرار العبارة الأخيرة التي مؤداها: أن الموضوع الطبيعي والفعلي للسانيات هو دراسة اللسان بذاته ولذاته".

لقد اعتبر توليو دو مورو[3] (Tulloi de Mauro)، بخصوص هذه الأخيرة، أننا أمام حالة من التكهن والكهانة حول المقاصد السوسيرية، إنها خلاصة تعكس انشغالا واضحا من لدن المحررين بالرغبة في توصيلها لقارئ كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة".

إن مجموع هذه التفاصيل يمكنها أن تفضح تلك اليد التي امتدت نحو المخطوطات، والتي شكلت في النهاية نص كتاب المحاضرات، بحيل متناهية الخطورة تتنافى مع مبادئ الأمانة، حتى أضحى النص عبارة عن سلسلة من الإضافات، والتغييرات والتحويلات والإبدالات، والانزلاقات، بل والمعارضة كما يرى جون كلود ميلنر (Jean-Claude Milner)[4]. وفي المحصلة تترائى لنا تلك المسارات التي شكلت نص المحاضرات، إننا بهذا النص ننتقل من مجموعة من المحاضرات الشفوية إلى ملاحظات سجلها طلبة مستمعون، للوصول إلى تأويل للشفوي والمسموع، بأقلام محررين لم يكونوا أصلا من بين الحاضرين. فكيف لنا في مثل هذه الظروف، أن نحيل بالشكل الصحيح إلى مقولات دوسوسير من خلال كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة؟ فالشك يسكن تفاصيل هذا النص مع كل فقرة وقبل وبعد كل سطر. لقد اقتنعنا بوثوقية عمياء أن ماهو أساسي في فكر دوسوسير حول اللسانيات العامة لخصه كتاب المحاضرات، حتى غدا هذا النص يشل تفكيرنا واضحا لنفسه قداسة ظلت تحول بيننا وبين العودة إلى حقيقته، والغريب إنه حتى مع بداية ظهور مخطوطات دوسوسير، فإننا آثرنا عدم الخوض في تعميق تلك المساءلات.

لقد وسم القرن العشرين في مجال العلوم الإنسانية بوصفه القرن الذي شغل باحثيه بترجمة الفكر السوسيري انطلاقا من محاضرات لم يكتبها صاحبها، لذا فقد كان لزاما على محرري نصوص هذه المحاضرات الوقوف على محاذير تشكيل صورة عن هذا الفكر من خلال ما توافر لديهم من شواهد، لذا يمكننا بوضوح أن نتبين هذا الهاجس بالنظر إلى ماجاء في مقدمة كتاب المحاضرات، إذ يقول المحررون: "إننا نتحمل كل المسؤولية في النقد، بالنظر إلى المؤلف نفسه، الذي ماكان له ربما ليوافق على نشر هذه الصفحات. وتلك مسؤولية قد

جميع الحقوق محفوظة

ISSN 2170-0400
EISSN 2600-6103

نتحملها دون غيرنا. وعليه وجب على آلة النقد أن تميز بوضوح بين المعلم ومؤولي كلامه. لذا فنحن أولى بتحمل ضربات النقد الموجعة، إذ من غير الصواب تلقى ذلك في سبيل فكر ثمين كهذا"[5]. هذا الإقرار امشكل لصريح يضعنا أمام المشكل بوضوح، ثمة إذا فرق بين المعلم ومؤولي أفكاره.

ولكن ماذا عن تلك المخطوطات والملاحظات التي سجلها الطلبة، والتي كانت عمدة كتاب المحاضرات"؟ أليس من الجدير الوقوف على مفهوم واضح للمسودة؟ تقدم "إيستانيسلاو صوفيا"[6] (Estanislao Sofia)، مجموعة من الملاحظات المهمة حول مفهوم المسودة في علوم اللغة، كملاحظات أولية حول فكرة النشر الرقمي لمخطوطات دوسوسير. مناقشة هذا المفهوم تهمنا طبعا، وربما كان من باب أولى أن تهم محرري طبعات كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة". فما توافر من مسودات "دوسوسير"، لايرقى لأن يشكل يمثل "مخطوطة" (Manuscrite avec un grand M)، لاعتبار أن المخطوطة هي كل مسودة نهائية لكتاب معد للنشر، ولكننا كنا أمام مسودات من الدرجة الثانية "مسودات موضوع بحث" خطت يدويا غير مكتملة ولا مصححة، وهي تأخذ في الغالب شكل ملاحظات عمل شخصية، قد توهم قارئها بأنها معدة للنشر ولكنها مجرد مشاريع بحثية. والأمثلة في هذا الباب كثيرة، على غرار الملاحظات التحضيرية لمقال حول "وايتني"، أو ملاحظات حول الجوهر الثنائي للغة، أو ملاحظات لكتاب حول اللسانيات العامة وغيرها. وهي في مجملها لا تمثل نصا – بالمعنى التوثيقي - ولكنها مجرد عملية أولية للكتابة، تسترعي كل مقتضيات الحيطة في سبيل إعادة نقلها بأمانة، كل ذلك لايمكنه أن يحصل إلا بمراعاة خصائص المكتوب، إذ الأمر متعلق بعمليات نقل معقدة تسترعي الانتباه إلى مؤشرات التصحيح، والإضافة، والإبدال والتحويل والتغيير وغيرها من دون إهمال لتلك الحواشي الموجودة مابين السطور والهوامش.

إننا في واقع الأمر، قد لانجد صعوبة في تحديد بوضوح تلك الملاحظات مما توافر من مسودات "دوسوسير"، بل إن الأمر قد يطول في جرد تلك الأفكار التي كانت موضع نقل وتعليق في كتاب المحاضرات. ويمكننا هنا الإشارة إلى أهمها، على غرار ملاحظات من قبيل:

- العلامة لاتكون اعتباطية سوى بالنظر إلى علاقتها بالشيء الذي تحيل إليه.
- اللغة هي شكل، بل هي شكل خالص؛ بوصفها نسقا مستقلا.
- يتوافق الفكر مع اللغة.
- يطابق المدلول التصور.
- لقد ظل البعد الاجتماعي في اللغة مهملا
- ...إن اللغة تجري بين الناس، وهي اجتماعية، وغيرها

هذه أمثلة عن ملاحظات خطت بيد دوسوسير، وفي مجمل هذه الموضوعات، فإن الإجابة الحقيقية والقطعية توجد حتما في تلك العبارات التي خطت بيد كاتبها. الأكيد أن الاكتشاف الحقيق لتلك المسودات (1998)، قد أسهم في توضيح تلك الإشكالات بأدلة حية، على الرغم من توافرها قديما، إلا أن محاولات استثمارها ضمن منطق إعادة البناء النصي قد ظلت متعثرة في سعيها نحو بناء دقيق للفكر السوسيري.

لايمكننا في واقع الأمر وبأي حال من الأحوال، أن نجرم شارل بالي وآلبرت سيشهاي، بالرغم من كثير من الحقائق الصادمة، فإليهما يعود الفضل في حفظ فكر دوسوسير من النسيان، وحتى وإن تمت عملية إعادة بناء

جميع الحقوق محفوظة

ISSN 2170-0400
EISSN 2600-6103

الفكر السوسيري، من قبل محريين لهم مزية الانتباه إلى ثورية أفكاره، بإرادة لا تخلو من الوعي بصعوبة المهمة، إلا أن الأسئلة ستجد طريقها للتكوثر في ثنايا النصوص التي حرروها، وإذا لم يكن دوسوسير هو كاتب كتاب "محاضرات في اللسانيات العامة"، فكيف كان فكره الحقيقي ليكون؟

هذا السؤال الجوهري، من شأنه أن يضع كتاب المحاضرات في جو من الشك، إنه شك ضروري للغاية من أجل فهم محتوى نظرية تنسب لواحد من أهم أعلام الفكر في القرن العشرين، في وقت أصحت في الإحالة إلى دوسوسير لا تخلو من الريبة. فهل ذلك الذي أحلنا إليه وأحال إليه المنظرون في نظرياتهم هو بالذات "دوسوسير" الحقيقي؟ أم أننا لانعرف منه غير بقاياه الفكرية التي أعيد بناؤها بدوافع البرهنة؟ للخروج من هذه الدائرة من الشك، سيكون لزاما علينا مراجعة الوثائق والتواريخ وحتى منهج المتابعة والقراءة قبل كتابة أي شيء بالنيابة عن "سوسير"، سيتوجب علينا البدء بتلك النصوص المنشورة من قبل مؤلفها، وكذا العودة إلى مخطوطاته وتصنيف قيمتها، بالإضافة إلى مراسلاته العلمية، ومن ثم مراجعة سجلات الطلبة وأكثر ملاحظاتهم اطرادا. إذ لايمكننا في ضوء هذه المعطيات أن تحدث كثيرا، ولا أن نتقول مالم يقله المعلم.

الأكيد أن ل: دوسوسير نصوصا ومنشورات علمية عديدة، يمكننا على الأقل الاكتفاء من بينها كشواهد على فكر الرجل، ببحثيه الجامعيين: مذكرة حول "النظام البدائي للصوائت في اللغات الهندو أوربية"[7] (1878)، ورسالة حول "استعمال الإضافة المطلقة في السنسكريتية"[8] (1881). هذين المؤلفين، قد شكلا مسارا مهما في رحلة بحثه اللسانية، قادته إلى تبني مفهومين ثوريين: مفهوم "النسق" في المذكرة ومفهوم"القيمية" في الرسالة، الذين سيشغلانه ضمن مطمح تنظيري. وإلى جانب هذين المؤلفين، ثمة عدد مهم من الملاحظات والمقالات التي نشرها دوسوسير والتى تدور في المجمل حول مساره البحثي المتصل حول اللغات الهندو أوربية. هذه المنشورات هي مجمل المداخلات التي قدمها في الجمعية اللسانيات بباريس مابين 1880-1892، والتي أخذت شكل ملاحظات تضاعف عددها حتى نهاية 1892، لتشهد فيما بعد تباعدا وتقطعا. لعل من أهم المقالات التي اشتهر بها "دوسوسير" آنذاك، تلك التي انصبت في غالبها حول اللغة الليتوانية القديمة، وهي اللغة التي كان يدرسها دوسوسير وقد عمل على اتقانها لسنوات طويلة، ضمن المسار البحثي الذي كان ينشده.

الغريب أن لاشيء عن موضوع اللسانيات العامة قد تم التطرق له، باستثناء بعض الإشارات البسيطة، على غرار تلك العبارة التي وردت في سياق نفيه لوجود "نظرية حقيقية حول اللغة"[9]. مشيرا إلى بعض الأخطاء المنهجية وبعض مظاهر الخلل في الانسجام في الطرح. وفي هذا الصدد، نجد أن تلك الاعمال المنشورة من قبل "دوسوسير" في حياته، قد عالجت قضايا النحو المقارن ومسائل متعلقة بإعادة بناء اللغة الهندو أوربية، إذ لم تبد اهتماما باللسانيات العامة، حتى وإن أشارت إلى وجهات نظر متعلقة باللسانيات العامة.

شيئا فشيئا أخذت منشورات دوسوسير بالتوقف بشكل ملفت، عدا بعض المداخلات النختصرة حول قضايا التأثيل قدمت بشكل مخصوص في جمعية التاريخ والحفريات بجنيف وقد بدا عليه الاحباط من خلال تلك المقالات التي تركها غير مكتملة أو تخلى عن متابعة البحث فيها بالكلية. إنه ذات الإحباط الذي سيطر عليه، وهو يستشرف البحث في سبيل نشر مؤلف عن اللسانيات العامة إذ يقول في حوار له مع ليوبول غوتي (léopold Gautier): "قد يكون من العبث الشروع في أبحاث طويلة لنشر "مؤلف حول اللسانيات العامة" لما أتيت إلى هنا (مشيرا) فقد تركت الكثير والكثير من الأبحاث غير المنشورة"[10]. هذا في المحصلة ما يؤكد، أنه عدا

جميع الحقوق محفوظة

ISSN 2170-0400
EISSN 2600-6103

كتاباته حول قضايا المتعلقة بالهندو أوربية، فإن دوسوسير لم يترك سوى مقاطع متناثرة وملاحظات تحتاج جهدا معتبرا للشرح والتعليق او حتى التصحيح.

الأكيد أن النصوص العلمية التي نشرها دوسوسير في حياته، انصبت في مجملها حول قضايا النحو المقارن للألسن القديمة، ولم تأت فيها الإشارات إلى اللسانيات العامة إلا عرضا. وهو مالا يتنافى في واقع الأمر مع المناخ السائد في تلك الحقبة، فقد كان الكل مشدودا إلى تحقيق حلم إعادة بناء اللغات الهندو أوربية، ولعل ما أكدته المخطوطات أن دوسوسير كان مدفوعا للتفكير حول الشروط المتعلقة بلسانيات عامة بالنظر إلى عدم رضاه التام عن المناهج والمفاهيم التي تأسست آنذاك عن الدراسات النحوية المقارنة للغات الهندو أوربية. هذا التوجه البحثي يوضح للعيان المسار الفعلي لدوسوسير وبعض عناصر نظريته.

ينبغي إذا علينا استعادة دور التحري والمسائلة حول تلك المخطوطات التي من شأنها توضيح فكر السوسيري حول اللسانيات العامة، وسنكون إذ ذاك ملزمين بالانتباه إلى تاريخ كل مخطوطة، بشكل يسمح لنا بتعقب تطور هذا الفكر بغض النظر عن الموضوعات.

لعل من أهم تلك المخطوطات التي أبانت عن تطور لصالح المحاضرات الثلاث التي سيلقيها دوسوسير في جامعة جنيف، تلك الدروس الشهيرة التي ألقاها في نوفمبر 1891 وقد أخذت شكل محاضرات كبرى ثلاث قدمها في أثناء تدريسه لمقياس التاريخ والمقارنة للغات الهندو أوربية[11]، وهي تشهد عن ملامح فكره في تلك الحقبة، تحديدا بالنظر إلى تلك النقاط المحورية التي أثارها، من قبيل إشارته إلى أهمية وصف "القوانين العامة" للغة عبر الاستناد إلى دراسة الألسن، ثم في إثارته لمسألة "ظروف تحول الألسن"، ومسألة "وضع اللسان داخل الزمن".

توضح مخطوطة الملاحظات حول النبر في اللغة الليتوانية التي تعود لسنة 1894، التحول الجذري في فكر دوسوسير من النحو المقارن إلى بعض التأملات في إشكالات اللسانيات العامة، فقد مثلا أورد عبارة مثيرة يقول فيها بالحرف: "إن الموضوع المركزي لقضايا النبر ليس النبر ذاته"، ولكن علاقات التقابل والاختلاف داخل اللسان، التي لايمكن للنبر إلا أن يكون مجرد مكون بسيط فيها. وهو ذات السياق، الذي استعمال فيه صورة لعبة الشطرنج؛ التي ستغدو محورية في تنظرياته، أول مرة.

تنضاف إلى تلك المخطوطات، مخطوطة ملاحظاته المدونة في نوفمبر 1894[12] التي أعد من خلالها مقالا حول " ويليام دويغ وايتني" (William Dwight Whitney)، العالم الأمريكي المشهور بدرايته الواسعة باللغة السنسكريتية. الذي أقر له بالفضل في استنباط بعض المبادئ العامة حول اللغة على الرغم من تلك النتائج غير المكتملة التي حققها النحو المقارن، لذا فهو يمثل في نظره حالة استثناء بنظرته الفلسفية[13]. إذ يمكن أن نقف في ثنايا هذه الملاحظات على فواصل معرفية مهمة من قبيل اعتباره اللغة بوصفها "مؤسسة إنسانية"، أوإشارته إلى "نظرية العلامات"، أو تمييزه بين "التطور" و"حالات اللغة"، أو تعريضه لمسألة الخاصية الكمية للتقابلات، كما مسألة "الاعتباطية" والتي وردت بصريح عباراته لأول مرة.

ثمة أيضا عدد الهائل من الملاحظات المعتبرة، التي استحال تدقيق تواريخها والتي ارتبطت بمنحى تطور الفكر السوسيري، إنها ملاحظات ذات صلة بالصوتيات والمورفولوجيا والتأثيل والعلامة أو بمنهج اللسانيات. وعلى الرغم من أن الملاحظات كانت تعكس حالات من التردد، والشك،والتكرار، والإضافات، والتقطع والإلغاء،

جميع الحقوق محفوظة

ISSN 2170-0400
EISSN 2600-6103

فإنه يمكن للمعاين أن يهتدي في ضوء اهتمام دوسوسير العام بالقضايا المتصلة بمشروع إعادة بناء اللغات الهندو أوربية، إلى أنه ثمة نظرية حقيقة حول اللسانيات العامة في طور التشكل.

مالا يمكننا أن نغفل عنه أيضا، تلك القيمة العلمية للمرسلات الشخصية التي حفظتها لنا المخطوطات، كونها استطاعت بوصفها وثائق علمية خطت بيد دوسوسير، أن توضح بما لايدع مجالا للشك. المسار الحقيقي للأبحاث التي كانت تشغله، والتي يمكن اعتبارها مرآة للمناخ النفسي الذي كان يحرك رغباته وانتكاساته في البحث. وهنا يمكننا أن نتحدث عن قرائن لماقبل ومابعد تلك الأبحاث المنشورة وغير المنشورة، إنها المساحة الأمثلة للحديث عن الخطط وعن الاستشارات والمسائلات، عن تلك الأسئلة المخبوءة. عن حالات الإحباط وسوء الفهم كانت تقض مضجعه، بل وحتى حالات الخوف المرضي من كتابة الرسائل أوالرد عليها، كل هذه الحالات لايمكن إهمالها بأي حال من الأحوال في سبيل التقاط خصائص فكر هذا الرجل.

الملاحظ، أن ماكان يشغل بال "دوسوسير" في تلك المراسلات القضايا المتعلقة باللغات الهندو أوربية، إلا أنها كانت تعكس في بعض جوانبها الاهتمام الواضح باستنباط مبادئ للسانيات العامة. ففي إحدى رسائله المحررة بتاريخ 04 يناير 1894 لصديقه أنتوان مايي (Antoine Meillet)، اعتراف صريح بصعوبة هذه المهمة، حين يقول: "إنني لم أستطع أن أضبط معنى محددا لمصطلح واحد على الأقل في مجال في اللسانيات"[14].

لقد بدا من خلال تلك المراسلات أيضا، كيف أن دوسوسير كان مشدودا لقضية أدبية مهمة عرفت بإشكالية التصحيفات (les anagrammes) في الأشعار اللاتينية والإغريقية القديمة، وهنا بدا الرجل كما لو أنه يستكشف مآل مقولاته ونظريته اللسانية نحو آفاق التحليل اللساني للنصوص الأدبية، كيف لا وهو مهندس هذا الأفق بالخط الذي وضعه بين "لسانيات اللسان" و"لسانيات الكلام". وهو ما عتبره رومان ياكبسون (R. Jakobson)، بمثابة "الثورة السوسيرية الثانية"، والتي فتحت البحث اللساني في مجال الشعريات على وجهات نظر غير متوقعة[15].

لقد قامت فرضيتة حول التصحيفات في النصوص الشعرية القديمة، على البحث عن وجود هياكل لمفردات تتعلق بأسماء أعلام، أو آلهة، أوقيم مشهورة، وذلك من خلال تتبع وضعيات الارتباط الصوتي في ثنايا القصيدة، كما لو أن هذه المفردات هي التي تؤلف البنية الهيكلية للأبيات فيها بشكل نسقي. ولإثبات صدقية حدوسه، فقد كان لزاما على دوسوسير أن يخلف من وراءه آلاف الصفحات في شكل ملاحظات، قدرت بحسب "جون لويس كافلت"[16] (louis- Jean Calvet) بحوالي 150 كراسا، غير أنه لم ينته من خلالها سوى إلى حالة من عدم اليقين بعموم فرضيته.

ورغم أن جون ستروبينسكي (J. Starobinski) كان قد كرس له جهد المتابعة فنشر سلسلة من المقالات جمعها في كتاب "الكلمات تحت الكلمات، تصحيفات ف. دوسوسير"[17]، فإن العديد من الباحثين أبدوا رأيا مغايرا، إذ اعتبره "ر. أماكر" (R. Amaker) "مغالطة ملهية"، أو بمثابة "الظلال المر" بحسب ج. رودار (G. Rodard)، أو "العمل الرائع المنقوص"، كما وصفه ب. ويندرلي (P. Wunderli).

الأكيد أن دوسوسير بعد استقصاء طويلة، لم تسلم نتائجه من داعي الريبة، ففي رسالته الثانية إلى آنطوان مايي التي أرسلها بتاريخ 12 نوفمبر 1906، يقول بالحرف: "إنه من شبه المستحيل بخصوص هذه الفكرة، أن يعرف المرء إذا ما كان ضحية للوهم، او إذا ماكان ثمة شيء ما من الصواب كأصل لهذه الفكرة..." [18]. لقد

جميع الحقوق محفوظة

ISSN 2170-0400
EISSN 2600-6103

أخذ به المشروع أخذ المستبد، فمن محاولات على عشرات القصائد اللاتينية القديمة، فإن مصادراته التصحيفية قادته إلى الشعر اللاتيني المعاصر، وهنا كانت له وقفة مع الشاعر اللاتيني جيوفاني باسلكولي (Giovani Pascoli)، إذ لم يمنعه الفضول من المراسلته، فبعيد الرسالة الأولى 19 مارس1909، والتي كان رد "باسكولي" علها سلبيا فيما اعتبره مجرد صدفة، فقد جاءت الرسالة الثانية بتاريخ 06 أفريل من السنة نفسها، للمسائلة مشفعة بالدليل لإثبات ماذهب إليه، وهي الرسالة التي لم يأت بعدها رد من باسكولي. والتي كانت مؤشرا لدوسوسير – على مايبدوا - لوقف البحث في موضوع تملؤه الشكوك، بعد أن كان قد قضى معه قرابة الخمس السنوات.

الهوامش:

(1) Engler Rudolf, Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale,Otto Harrasowitz, Wiesbaden,f.1 et2, 1967,f.3,1968,515p.

(2) Godel Robert, Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale de F. de Saussure, éd. E.Droz, Genève,1957.

(3) Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, Tullio de Mauro,col. Bibliothèque scientifique, éd. Payot, Paris,1972,520p.

(4) Le périple structural, figures et paradigme, éd. Seuil, Paris,2002,p.16.

(5) Ferdinand de Saussure, Cours de linguistique générale, preface,15 juillet 1915, p.11.

(6) Qu'est qu'un brouillon en sciences du langage ? notes prealables a une édition numerique des manuscrites de F. De Saussure, Cahiers Ferdinand De Saussure, Drozt,211,63,p.3. In https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00668556

(7) Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes.

(8) De l'emploi du génitif absolu en sanscrit.

(9) Recuiel des publications scientifiques de Ferdinand de Saussure,Slatkine Reprints, Genève,1970,pp.539-541.

(10) Godel Robert, Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale de F. de Saussure, p.30.

(11) ينظر محاضرات في جامعة جنيف في كتاب:
Bouquet Simon et Engler Rudolf, Sassure Ferdinand, Ecrits de linguistique générale, éd. Gallimard,Paris,2002,pp.143-173.

(12) Notes pour un article sur Whitney, In Bouquet Simon et Engler Rudolf, Sassure Ferdinand, Ecrits de linguistique générale, pp.197-222.

(13) Bouquet Simon et Engler Rudolf, Sassure Ferdinand, Ecrits de linguistique générale,,p204 et p222.

(14) Lettres de Ferdinand de Saussure à Antoine Meillet, pub. Emiles Benveniste, Cahiers Ferdinand de Saussure, n^0 21, éd. Droz, Genève,1964,p.95.

(15) R. Jakobson, La charpente phonique du langage, éd. De Minuit,Paris,p.268.

(16) Louis-Jean Calvet, Pour et contre saussure vers une linguistisue sociale, éd. Payot, Paris,p.32.

(17) Starobinski Jean, Les Mots sous les mots, les anagrammes de Ferdinand de Saussure, NRF, Gallimard, Paris,1970, p.160.

(18) Louis-Jean Calvet, Pour et contre saussure vers une linguistisue sociale,p.33.

جميع الحقوق محفوظة